أختُ ولاَّدة

ثريا العريِّض

بيننا الآن منطلقٌ للتواشيح
هل تستحي أن تبوحَ بأسرارِ وجدِك؟.. قل لي
لماذا إذا نَثر الأقحوانُ جدائلَه واستوى
فوق عرشِ الوجودِ تراجعت الكائناتُ إلى ذاتها
واستعارت تواشيحَ من سافروا للبعيد؟

أُصيغُ هنا لابن زيدون
تلك القصائد كم نشرت عرْفَها
لأندلسيٍ يهدهد حلما؟
تراجعني الهامساتُ خطى لِقصائدِها
آه ولاّدة الفخر إذ تتجلّى
ليس لي حرفُها فلماذا تحمّلُني حزنَها وتزيد؟
ولماذا صداها يراودُني ويراوغُني..
لماذا كأمس الطلولِ يعاندُني ويسود؟

لِلطلولِ متاهاتُها
وما اعتدتُ إلا بكاءَ الطلول
كما فعل السابقون
فما كان لي عينُ زرقاء حتى أرى قادماً من بعيد
ولا كان لي شوقُ عفراء كي يتسامقَ نحوي
الغريبُ القريبُ الحبيبُ البعيد.

لم أكن قبل إطلالةِ الوجدِ في شرفات التجلّي سوى
همسةٍ للرياحِ التي قد تهبّ.. وقد لا تهبّ
وما كنت أدركُ أن الرياحَ الدمشقيّةَ اللون
ترخي بقلبي عواصفَها وأني على عصفِها أستعيد
لصوتيَ ما قالت الريحُ للأقحوانةِ يومَ استبدّت بها
فانتثرتُ بِصمتي أنادي الشرودَ العنيد:
يا ابن زيدون.. قل لي..

وفاجأني في التواشيح صوتي
فأشرعت كلَّ المصاريع والشرفات المصونةَ قلتُ:
غداً عندما تستبيحُ الرياحُ سكوني وأعصفُ
سوف على نبضِها أستميحُ الوجودَ وجوداً
جديداً، وأهمسُ كالأقحوانِ بِبَوحي: أنا أختُها
أختُ ولاّدة الفخر والعزُّ بيتي
عتيقٌ عتيد..

وقفتُ على شرفاتِ
السكونِ بِقرطبة الأمس أبكي
وأتركُ حزني وحزنَ البلادِ يعرّش
في المشربيّات
في الشرفات الصقيلةِ
في دفءِ أمس الذي كان
ثم استحال طلولاً تطلُّ على رقصةِ
الغجريّات صخباً وفي النبضِ إيقاعُ موتي
إذا ضرباتُ الدفوفِ تراوحُ ما بيننا

ترى ما الذي كان ما بيننا يا ابن زيدون؟
ما زلتُ أسألهُ.. قرارةُ حزنيَ موتي..
عزفٌ لِقيثارةٍ تستفزُّ الجوانح نائحةً؟
.. تستغيثُ.. ارونا الآن فيضَ وجودٍ؟
.. تعيثُ بِنبضيَ أنّاتُها.. وتجود
زماناً بأشجان أمس تصاهَلَ
بي وصلُهُ زاخراً مستفيضاً
يعود بولاّدة الآن صوتي..
يعود..

كوستا دل سول – إسبانيا